ما خلف الستائر: المعرفة، المواقف والسلوكيّات الجنسانيّة لدى طلبة الثانويّة الفلسطينيّين في إسرائيل

رائفة جبارين*

ملخَّص البحث

الجنسانيّة، بوصفها جانبًا مهمًّا من صحّة وتطوّر الشباب، جرى تناولها في دراسات عدّة وفي المجتمعات المختلفة حول العالم. في إسرائيل، معظم الأبحاث المتعلّقة بجنسانيّة الشباب قد أجريتْ في المدارس الثانويّة الإسرائيليّة (اليهوديّة)، وأَهمَلت تمامًا الشباب الفلسطينيّ. في دراسة دوليّة عن سلوكيّات المراهقين الصحّيّة، بما في ذلك السلوك الجنسيّ، والتي أُجرِيَتْ في جميع أنحاء إسرائيل في السنوات 1997-2009، أُغفِل المراهقون الفلسطينيّون في إسرائيل تمامًا من أسئلة البحث المتعلّقة بالصحّة الجنسانيّة. وهكذا هو الشأن في معظم الدراسات الأخرى من دراسات أكاديميّة وغيرها. من هنا، وابتغاء جَسْر الفجوة المعلوماتيّة بشأن العوامل المؤثّرة على الصحّة الجنسانيّة لدى الشباب الفلسطينيّ في إسرائيل، ترمي هذه الدراسة: 1) إلى فحص المعرفة والمواقف والسلوكيّات الجنسانيّة لدى طلبة المدارس الثانويّة العربيّة الإسرائيليّة؛ 2) إلى تطوير إطار نظريّ، ملائم ثقافيًّا ومجتمعيًّا، من أجل استخدامه أداةً للتنبّؤ بمدى المعرفة والمواقف والسلوكيّات الجنسانيّة لدى الطلبة.

سينفَّذ البحث بالاعتماد على المنهجيّة البحثيّة المعتمِدة على المشاركة المجتمعيّة (Community Based Participatory Research- CBPR)، وستُجْمَع المعطيات عن طريق استمارة ستوزّع لعيّنة عنقوديّة من طلبة وطالبات الصفوف العاشرة والحادية عشرة في المدارس الثانويّة العربيّة، مع المحافظة على سرّيّة قصوى. وبالإضافة إلى ذلك، سيعتمد البحث إطارًا نظريًّا خاصًّا طوّرته الباحثة، في سبيل مسح جميع المؤثّرات وفحص التفاعلات في ما بينها لتعميق الفهم وإدراك العوامل الأكثر تأثيرًا على صحّة الشباب الجنسانيّة، بغية بناء برنامج إرشاد ملائم مجتمعيًّا وثقافيًّا لمجتمعنا الفلسطينيّ.

توطئة

اهتمامي الأوّليّ بمواقف وسلوكيّات المراهقين الجنسيّة نبَعَ من كوني امرأة فلسطينيّة، وممرّضة مهنيّة، وأمًّا لثلاثة أولاد، الأصغر من بينهم ابنة في سنّ المراهقة. هذه الأمور مجتمِعةً قادتني إلى الموضوع البحثيّ لأطروحتي لنَيْل اللقب الثالث، الذي يتناول الصحّة الجنسانيّة لدى الشباب الفلسطينيّ في إسرائيل. للجنسانيّة -وهي جانب مهمّ من حياة كلّ إنسان- أبعاد جسمانيّة عاطفية اجتماعيّة ثقافيّة. يشكّل المراهقون شريحة مجتمعيّة مهمّة عليها يقوم مستقبل

الشعوب. بينما يشكّل الأطفال والشباب 20 % من سكّان العالم، يشكّل الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين سنّ الثانية وسنّ الرابعة والعشرين (2-24) ثلثَ السكّان الفلسطينيّين في إسرائيل (Central Bureau of Statistics, 2016). خلال مرحلة المراهقة، تَحْدث تغيُّرات سريعة تؤثّر على سلوك المراهق الجنسيّ والنفسيّ والجسديّ والغذائيّ والعقليّ والاجتماعيّ. وهي تطوُّرات طبيعيّة وإيجابيّة في صحّة ورفاهِيَة كلّ إنسان تتأثّر بعوامل مختلفة، من بينها عوامل جسمانيّة وأخرى نفسيّة واجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة وأخلاقيّة ودينيّة وروحانيّة (Germain, 2015).

فماذا يعرف شبابنا عن الجنس والجنسانيّة؟ ما هي مواقفهم المتعلّقة بالموضوع؟ وما هي سلوكيّاتهم الجنسانيّة؟ وما هي العوامل الأكثر تأثيرًا على صحّتهم الجنسانيّة؟ كلّ تلك أسئلة تُطرَح في عصر يعيش فيه الشباب في عالم معلوماتيّ مفتوح، منكشفين لكمٍّ هائل من المعلومات المتاحة بلا حدود، وفي كثير من الأحوال دونما مراقبة، وهو ما عمّق الفجوة العُمْريّة بينهم وبين جيل الأهل. لذا، سيقوم هذا البحث بفحص وتقييم التأثيرات الخارجيّة (العائلة؛ الأصدقاء؛ المدرسة؛ الدين؛ الإعلام؛ السياسة؛ وسائل الاتّصال الإلكترونيّة)، وكذلك التأثيرات الداخليّة (الجسمانيّة؛ النفسيّة؛ الإدراكيّة)، على المتغيّرات التابعة الثلاثة: المعرفة والمواقف والتصرّفات الجنسانيّة لدى الشباب.

حول التربية الجنسانيّة:

عندما يُطرح موضوع الجنسانيّة لدى الشباب، غالبًا تتناول الأدبيّاتُ السلوكيّاتِ الجنسيّةَ ومخاطرَها في أساس ما تتناول. لكن الجنسانيّة تتعدّى التغيُّرات والرغبات الجسمانيّة لتشمل كذلك أبعادًا أخرى كالبعد العاطفيّ، والهُويّة الجندريّة، والثقة بالنفس، والقدرات الإدراكيّة، والقدرة على اتّخاذ القرارات وغيرها (Tolman & McClelland, 2011). لم يحظَ هذا الجانب المهمّ من صحّة الشباب في المجتمع الفلسطينيّ بالاهتمام الكافي من قِبل جهاز التربية والتعليم، والأهل، والباحثين ومتّخذي القرارات في السلطة وفي المجتمع. لم يشمل البحثُ، الذي تُجريه المنظّمة للسلوكيّات الصحّيّة لطلبة المدارس (HBSC) كلّ أربع سنوات، الطلّابَ الذين في المدارس العربيّة على مدار السنين. لم يحدث ذلك إلّا في عام 2014، إذ للمرّة الأولى شملت الدراسة عيّنة من طلّاب الصفّ العاشر في المدارس العربيّة، وقد عاين البحث السلوكيّات فقط، دون التطرّق إلى المستوى المعرفيّ والمواقف المتعلّقة بالصحّة الجنسانيّة (HBSC Israel,2016). إضافة إلى ذلك، تجاهلت هذه الدراسة تمامًا التأثيرات النابعة من المحرّمات الثقافيّة بشأن كلّ ما يتعلّق بالجنس في المجتمع العربيّ المحافظ. قد تكون أسئلة المسح المناسِبة للطلّاب من مجتمع غربيّ غيرَ مناسبة (وتلقى إجابات غير صحيحة) للطلبة الذين من ثقافات لها خصوصيّاتها الثقافيّة كالمجتمع الفلسطينيّ. هذا التجاهل يظهر واضحًا أيضًا في البرامج الـمُعَدّة للتربية الجنسيّة لطلبة المدارس، حيث لم تُلاءَم مضامينها لخصوصيّة المجتمع الفلسطينيّ، وهو ما يشكّل عائقًا لتنفيذها من قِبَل المعلّمين والجهاز التربويّ، ويترك الطلبة بلا توجيه وإرشاد ملائمَيْن لحضارتهم ولتقاليد مجتمعهم.

الإطار النظريّ

هناك أُطُر نظريّة عدّة لفهم العلاقة بين المواقف والتأثيرات الخارجيّة على السلوكيّات الصحّيّة، بغالبيّتها طُوِّرت وأثبتت ملاءَمتها للمجتمع الغربيّ. لذا، ثمّة حاجة ماسّة إلى تطوير إطار نظريّ ملائم ثقافيًّا واجتماعيًّا لتقييم المؤثّرات والتحدّيات التي تواجه الشباب في مجتمع محافظ واقع في مرحلة انتقاليّة، يتخبّط بين عاداته وتقاليده، من جهة، والانكشاف المكثّف للعالم الواسع، من جهة أخرى. في هذا البحث، نقوم باقتراح إطار نظريّ يعتمد على "نظريّة النظُم

الإيكولوجيّة" (Ecological Systems Theory). تبحث هذه النظريّة أساسًا في تطوُّر الطفل، ضمن أو داخل سياق نظُم العلاقات التي تشكّل بيئةَ الفرد، كالأسرة والبيئة والمجتمع والعوامل العالميّة (Bronfenbrenner, 1989). الإطار النظريّ المقترَح يطرح فكرة توزيع العوامل المؤثّرة على الصحّة الجنسانيّة للشباب، لمؤثّرات خارجيّة كالبيئة البيتيّة، والمدرسة، ومجموعة الأصدقاء، والعادات والتقاليد، والدين، والإنترنت وعوامل سياسيّة. بينما تشمل المؤثّراتُ الداخليّةُ العواملَ النفسيّة والعاطفيّة والإدراكيّة لدى الشابّ. التجديد الإضافيّ في الإطار المقترَح هو أنّ التفاعليّة بين هذه النظُم ليست بطبقيّة أو تراتُبيّة. فمن الممكن، في عالمنا اليوم، أن تكون المؤثّرات العالميّة -كالإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعيّ- ذاتَ وقْع أكبر بكثير من المؤثّرات الأُسَريّة أو المجتمعيّة.

منهجيّة البحث

ستُلاءَم منهجيّة البحث وسيرورته لخصوصيّة المجتمع الفلسطينيّ المحافظ[1] الذي يمرّ بمرحلة انتقاليّة. ولذا، سينفَّذ البحث بالمنهجيّة البحثيّة المعتمِدة على المشارَكة المجتمعيّة (CBPR). وهي منهجيّة بحثيّة تأخذ بعين الاعتبار المجتمع المحلّيّ في الحقل البحثيّ كشريك ومساهم فعّال في المسار البحثيّ. ثبتت نجاعة هذا الأسلوب البحثيّ على نحوٍ خاصّ في الأبحاث التي تتناول مواضيع حسّاسة، بهدف ملاءَمة منهجيّة البحث وأدواته وسيرورته للحقل البحثيّ، ثقافيًّا ومجتمعيًّا (Rowley et al., 2015). في هذا البحث، جرت الاستعانة بمجموعة مستشارين مجتمعيّة ذوي تجربة نظريّة وعمليّة في موضوع جنسانيّة الشباب، ابتغاءَ ملاءَمةِ منهجيّةِ البحث في هذا الموضوع الحسّاس لخصوصيّة مجتمعنا المحلّيّ. المجموعة شملت ناشطين جماهيريّين من جمعيّة البيت المفتوح ومنتدى الجنسانيّة، ومعلّمين، وأهاليَ، ومديرَ مدرسة، وعاملةً اجتماعيّة، ومستشارين تربويّين، وممرّضة، ورجل دين، وشبّانًا في سنّ الثامنة عشرة (18). بمساعدة مجموعة المستشارين المجتمعيّة، واسترشادًا بالإطار النظريّ المقترح، الذي أنشئ في هذا البحث، وُضعت استمارة البحث الملائمة ثقافيًّا ومجتمعيًّا، حول الصحّة والحياة الجنسانيّة لدى الشباب.

أهمّيّة البحث

هذه الدراسة هي أوّل محاولة للقيام بمسح شامل لصحّة المراهقين الفلسطينيّين الجنسانيّة من مستوى معرفيّ، ومواقف وسلوكيّات، باستخدام استبيان مناسب ثقافيًّا ومستمَدّ من مجموعة استشاريّة مجتمعيّة، مع مراعاة سياق المجتمع العربيّ المحافظ. كذلك يرمي البحث إلى تطوير إطار نظريّ، ملائم ثقافيًّا ومجتمعيًّا، يشمل المؤثّرات الخارجيّة كالبيت، والمدرسة، ومجموعة الأصدقاء، والعادات والتقاليد، والدين، والإنترنت والسياق السياسيّ، والمؤثّرات الداخليّة من نفسيّة وعاطفيّة وإدراكيّة، بغية استخدام هذا الإطار أداةً للتنبّؤ بالسلوكيّات الجنسيّة لدى الشباب في أيّ مجتمع محافظ ينكشف عن طريق العَوْلمة والإنترنت لقيم ومفاهيم جديدة.

قبل الخاتمة

المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل، الواقع في مرحلة مجتمعيّة انتقاليّة، يتخبّط بين التقليد والحداثة، ولا سيّما في ما يتعلّق بالعلاقات داخل العائلة وبين الأجيال (Azaiza, 2013). فالمجتمع العربيّ، والأهل، وجهاز التربية والتعليم، ما

[1] تجدر الإشارة إلى أنّ هناك أثرًا كبيرًا للنكبة والممارسات السياسيّة للدولة لغاية اليوم على تكريس المنظومة المجتمعيّة الذكوريّة والمحافظة. لا تتّسع الورقة الحاليّة لتناوله، ولكن في سبيل الاطّلاع على ذلك في الإمكان مراجَعةُ المصدر التالي: Abdo-Zubi, 1987, Hasan, 2002.

زالوا متقوقعين في العادات والتقاليد المجتمعيّة التقليديّة والمحافِظة بغالبيّتها، بينما يحيا الجيل الجديد في العالم "التكنولوجيّ" الحديث، منكشفًا لعالم معلوماتيّ مفتوح ومنعدم الحدود والقيود عن طريق الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعيّ، ممّا جعل فجوة الأجيال أكبر وأعمق بين الشباب وأهلهم ومعلّميهم (Abu-Asbah, 1998). وتتعمّق هذه الفجوة على نحو خاصّ عند الحديث عن الجنس والجنسانيّة التي ما زالت في عداد "التابوهات" الاجتماعيّة؛ وفي المعتاد يواجه الأهل والمعلّمون صعوبة في التعامل مع هذا الموضوع الحسّاس. وحتّى هؤلاء الذين يَعُون أهمّيّة التوعية الجنسيّة لا تتوافر لديهم القدرات والأدوات للقيام بهذه الـمَهَمّة الصعبة (Saabneh, 2015).

وماذا بعد؟

نصبو لتوسيع الإطار النظريّ المقترَح لمجتمعات أخرى تعيش بين التقليد والحداثة، وتعاني من فجوة الأجيال العميقة بين الأهل والأبناء، كالأقلّيّات الإثنيّة الأخرى حول العالم، والمهاجرين ومجتمعات اللاجئين في الغرب. كذلك ستجري مشاركة نتائج الدراسة مع أولياء الأمور والمعلّمين ووزارة التربية والتعليم والجهات التي تعمل مع المراهقين الفلسطينيّين وتقدّم الرعاية لهم، ولا سيّما في مجال الصحّة الجنسانيّة، على أمل أن تُزاح الستائر ويعطى هذا الجانب الهامّ من صحّة كلّ مراهق حقَّه، وأن تسهم هذه الدراسة في تأسيس برنامج إرشاد وتوعية جنسانيّة للشباب ملائم للمجتمع الفلسطينيّ وخصوصيّته، ليكون مشروعًا مهنيًّا مدعومًا ومؤسَّسًا على معطيات بحثيّة مثبتة.

المصادر:

أبو عصبة، خالد. (محرّر). (1998). **الأولاد والشبيبة العرب في إسرائيل -من الوضع القائم نحو جدول أعمال مستقبليّ**. القدس: جوينت -معهد بروكديل.

Azaiza, F. (2013). Processes of conservation and change in Arab society in Israel: Implications for the health and welfare of the Arab population. **International Journal of Social Welfare,** 22(1), Pp15-24.

Bronfenbrenner, U. (1989). Ecological systems theory. In R. Vasta (Ed.), ***S*ex theories of child development: Revised formulation and current issues** (Vol. 6 ed., pp. 187-249). Greenwich, Connecticut: JAI Press.

Central Bureau of Statistics. (2016). Population by; Group, religion, sex and age. Retrieved in (July 13, 2018) from http://www.cbs.gov.il/shnaton67/st02_03.pdf

Germain, A. (2015). Commentary: Promoting healthy adolescent development through comprehensive sexuality education. Global Public Health, 10(2), Pp. 222-224.

Abdo-Zubi,Nahla(1987). Family, Women and Social Change in the Middle East: The Palestinian Case (Toronto: Canadian Scholars' Press.

Hasan, manar. 2002 "The politics of honor: patriarchy, the state and the murder of women in the name of family honor", Journal of Israeli History: Politics, Society, Culture. 21, issue 1-2, Pp 1-37.

HBSC Israel. (2016). **Health behaviors in school-aged children (HBSC) A world health organization cross-national study in Israel (1st ed.)**. Jerusalem: the Israeli Ministry of Health.

. . . Cargo, M. (2015). ،Rowley, K., Doyle, J., Johnston, L., Reilly, R., McCarthy, L., Marika, M., Strengths and limitations of a tool for monitoring and evaluating first peoples' health promotion from an ecological perspective. **BMC Public Health, 15(1)**, 1215.

Saabneh, A. (2015). Ethnic health inequalities in unequal societies: Morbidity gaps between Palestinians and Jews in Israel. **European Journal of Population, 31(4)**, Pp. 445-466.

Tolman, D. L., & McClelland, S. I. (2011). Normative sexuality development in adolescence: A decade in review, 2000–2009. **Journal of Research on Adolescence, 21(1)**, Pp. 242-255.

* **رائفه جبارين: طالبة دكتوراه في كلية التمريض بجامعة حيفا، حاصلة على اللقب الأول والثاني في ادارة المرافق الطبية وممرضة مؤهلة.**